المجلس العلمي معهد الآداب واللغات

المحاضرة رقم (01):

عوامل نشأة التفكير البلاغي عند العرب

توطئة:

إنّ البحث البلاغي عند العرب مرّ بمراحل متعددة حتى وصلنا إلينا في هذه الصورة المعهودة اليوم، والتي قسّم بموجبها – أي علم البلاغة– إلى العلوم الثلاثة المعروفة: علم المعاني، وعلم البيان وعلم البديع. ولكنّ المتأمل في هذا الدرس ينبغي أن يطرح تساؤلات، أهمها، العوامل التي ساعدت في ظهور هذا التفكير البلاغي عند العرب أولا، ثمّ التطوّر الحاصل في مفهوم البلاغة عندهم، وما هي المصنفات البلاغية التي يمكن أن نتوقف عندها للنظر في مقولاتها؟.

عوامل نشأة البلاغة:

لا شكّ أنّ أيّ علم يظهر للوجود تكون له مسببات دفعت العلماء إلى تحقيق التفكير به، وهو ما حصل فعلا مع البلاغة العربية، سواء كان ذلك قبل مرحلة نزول القرآن الكريم، أو بعده. ومن ثمّ يمكن أن نذكر تلك العوامل وفق ما يأتي[1]:

الشعر:

يعتبر الشعر مميزا هاما للحضارة العربية الإسلامية، اهتم به العرب، بل كان ديوانهم، وهو " علم قوم لم يكن أصح منه" فقد أدى هذا الاهتمام إلى البحث عن طرق في تذوقه، لتعيين الحسن والردئ، فكانوا عن طريق الفطرة مدركين لبعض خصائص هذا الشعر، فالاهتمام بتلك الخصائص هو في نظرنا اهتمام بالتفكير البلاغي، فنأخذ مثالا لذلك[2]، ما يُروى عن النابغة

---

[1] للتفصيل أكثر في العوامل التي ساعدت على نشأة البحث البلاغي، ينظر، التفكير البلاغي عند العرب، حمادي صمود، الكتاب الجديد، ط3، 2010، ص23 .

[2] ينظر، شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، ص 11 .

الذبياني، الحاكم للشعر، الذي تطاول عليه حسان بن ثابت، وتحدى حكمه بأن يكون أشعر من الخنساء، حين فضّل عليه النابغةُ، الأعشى والخنساء. ومنه قال حسان:

لَنَا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يَلمَعْنَ بالضُّحَى وَأَسيَافُنَا يَقْطُرْنَ منْ نَجْدَة دَمًا

وَلَدْنَا بَنِي العَنْقَاء، وابنيّ مُحَرّق وَأُكْرِمْ بنَا خَالاً، وَأَكْرِمْ بذا ابْنَمَا

فقال النابغة: " إنّك لشاعر لولا أنّك قللت عدد جفانك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك، وفي رواية أخرى فقال له: إنّك قُلت الجفنات فقللت العدد ولو قلت الجفان لكان أكثر. وقلت يلمعن في الضحى، ولو قلت يبرقن الدّجى لكان أبلغ في المديح لأنّ الضيف بالليل أكثر طروقا. وقلت: يقطرن من نجدة دما. فدللت على قلة القتل، ولو قلت يجرين لكان أكثر لانصباب الدم، وفخرت بما ولدت ولم تفخر بمن ولدك، فقام حسان منكسرا منقطعا " .

وفي النص دلالات واضحة على بدء التفكير في تذوق الشعر من حيث النظر في بنيتها الداخلية (خصائص لغته)، والتوصل إلى التميز بين الألفاظ في قرض الشعر، فليست كلها معبرة عن المعنى المراد، ولما نقول بداية التفكير باللغة والنظر في خصائص الشعر يعني بدء التفكير البلاغي عندهم.

القرآن:

غدا القرآن القطب الذي دارت حوله المجهودات الفكرية زمنه، وذلك لبيان قضية إعجازه واستخراج وجه التحدي فيه، فانعكس ذلك على الاهتمام بلغته ومن ثمّ تقنين اللغة العربية، خوفا من أن يُصيب الفساد القرآن، فقد استفادت البلاغة العربية من وراء الاهتمام بالنص القرآني، وكان مرد الاستفادة إلى بيئة المعتزلة وبيئة المتكلمين، من حيث تأويل المعتزلة لأيّ الذكر الحكيم على أصولهم العقائدية ومن بينهما مبدأ التوحيد.

تقعيد اللغة:

لقد دفع عدّ القرآن والشعر من المصادر اللغوية التي رجع إليها اللغويون لتقعيد اللغة، فاستخرجوا خصائصهما النوعية وفق مشاغل نحوية في درجة الأولى، لكنّ ذلك أخرجهم إلى

بعض الملاحظات البلاغية، فنجد ابن جنيّ (ت392هـ) يعالج مبحث " الحقيقة والمجاز" في كتابه: " الخصائص"[1]، وهو أهمّ مبحث يقوم عليه علم البيان إلى اليوم.

الحاجة إلى التعلم والتعليم:

لقد أدى التطور الحضاري للعرب إلى استقراراهم في المدن، وظهرت مع ذلك فئات اجتماعية تقوم على صناعات لم تكن الحاجة إليها سابقا، ومنها فئة المؤدبين والمعلمين، ففي عهد الدولة الأولى اشتغلت هذه الطائفة إلى تعليم الأولاد المرشحين للخلافة. وأما الطائفة الثانية فقد انصب اهتمامها على تعليم البلاغة لأمور عقائدية في بيئة المتكلمين والمعتزلة. وأما الطائفة الثالثة تقوم على تأديب على الكتاب الملحقين في مؤسسات الدولة بديوان الرسائل والكتابة.

المؤثرات الأجنبية:

أشار بعض الباحثين إلى وجود عناصر غير عربية في موروثنا البلاغي، فقد كان الاهتمام بتأثر البلاغة العربية بالبلاغة اليونانية من الدراسات النوعية المعاصرة؛ إذ تناول طه حسين القضية في بحث وسمه بـ " **البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر**"، وتتبعه في ذلك تلميذاه أمين الخولي وشوقي ضيف. وواضح أنّ الاهتمام بالبلاغة اليونانية كان في فترة مبكرة من تطور الدرس البلاغي عند العرب فكتاب الخطابة لأرسطو كان معروفا في القرن الثالث الهجري، وشرحه الفارابي (ت 339هـ). أما ابن سينا (ت 428 هـ) فقد اهتم به في كتابيه: " معاني كتاب ريطوريقا"، و " الخطابة" ومعنى ذلك أنّ أفكار أرسطو تسربت مبكرا إلى علماء العربية، وزاد الاهتمام في الفترة المتأخرة إلى عصر حازم القرطاجني.

---

[1] ينظر، ابن جنيّ: الخصائص ، تحقيق الشّربني شريدة، دار الحديث، القاهرة، 2007، ص 418 .